قصة

لعبة دومينو..

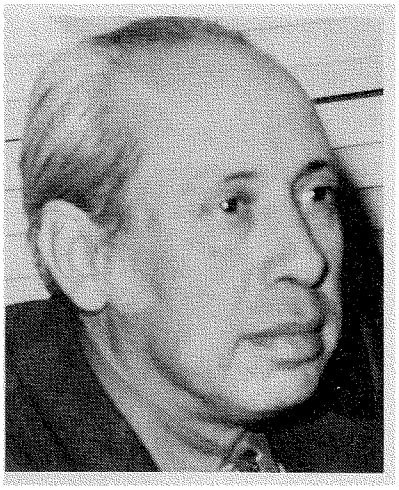

نزار عباس

كنّا مجموعة من المتقاعدين، اتّخذنا من مقهىٰ النّهر مكاناً للّقاء كلّ صباح، نقرأ الصحف ونحتسي الشّاي ونثرثر في أيّ موضوع يخطر على البال. وعندما يدركنا التّعب، نسرِّح نظرنا على صفحة الماء الّذي يمتدّ أمامنا بلانهاية. وغالباً ما تُقدِّم لنا صحفُ الصّباح مادّةً لما نخوض فيه من أحاديث وذكريات.. هكذا قرأ السيِّد عبد الجواد، وهو معلِّم متقاعد، خَبَرَ «انتشال جثّة غريق» فرفع عويناته، ووجّه الحديث إلينا، قائلاً: «إنّ اكتشاف جثّة غريق قد لا يثير اهتمامكم، فأنتم تعتقدون أنّ الغريق سقط في النّهر بفعلِ دَفْعٍ من الخارج، ولم يكن يعرف السّباحة، أو أنّه انتحر بسبب خسارة في تجارة أو فشل في قصّة حبّ، أوأنّ إهانة كبيرة لحقت به.. إلخ..، ولكن دعوني أحدِّثكم عن شخص آثر الموت غرقاً بسبب رهان سخيف».

اتّجهتْ أنظارُنا إلى السيِّد عبد الجواد الذي يحمل إلينا، كلّ يوم، تعليقاً طريفاً أو حكاية ممتعة. ولمّا أحسَّ بأنّنا بانتظار حديثه، استطرد يقول: «أجل، أيّها الأصدقاء، رهان سخيف.. وسأروي لكم الحكاية، كي تعرفوا أنّ الإنسان كائن عجيب حقّاً، وأنّ العقل هو آخر مَنْ يتحكّم بأعماله! فقد تسيطر على الإنسان فكرة عابرة، أو حتّى لعبة صغيرة تافهة تتحكّم في مصيره، وتقوده إلى النّهاية، ويبدو أمامها مجرَّدَ ريشةٍ في مهبِّ الرّيح، لا حول لها ولا قوّة..»

تنقّلت نظرات السيِّد عبد الجواد على وجوهنا جميعاً، وبعد أن رشف ما تبقّى من قدح الشاي، أشعل سيجارة، ثمّ راح يسرد لنا حكاية ذلك الشّخص ورهانه العجيب..

قال: «في بداية الخمسينات التقيتُ بالسيِّد وحيد. كنّا نرتاد هذا المقهى نفسه، وكان يؤمّه، كما الآن، أشتاتٌ من النّاس. وقد عرَّفني به صديقي أحمد، رحمه الله، قائلاً: يسرّني أنْ أُعرِّفك بالسيِّد وحيد.. أحسن من يلعب «الدومينو» في هذا البلد! طبعاً، أخذتُ الأمرَ على سبيل النكتة والمبالغة. وبعد مرور أشهر أدركتُ من خلال لعبي معه ومراقبتي إيّاه حين يلعب مع الآخرين، أنّ صديقي لم يكن مبالغاً في وصفه، وأنّ السيِّد وحيد يستحقّ أن يحمل لقبَ أحسن لاعب في مقهى النّهر على الأقلّ! كان ينصرف إلى اللّعبة بكلِّ حواسّه، لاهياً عن كلِّ ما حوله، يظلّ محدّقاً في قطع «الدومينو» أو في وجه منافسه وأصابعه وتعابير وجهه، كأنّه يريد أن يعرف بدقّة ماذا يحمل خصمه، وأيّة قطعة سيرمي. وكان حين يصحّ توقّعه، ويرمي خصمه بالقطعة التي حدسها، يبتسم السيِّد وحيد بهدوء، ويشعّ من عينيه بريقُ انتصار غريب.

أمّا صديقي أحمد ـ يرحمه الله ـ فكان لا يملّ من مراقبة صاحبنا أثناء اللّعب، وكان أحياناً يحدّثني عنه.. قال لي مرّة: «هل تعرف أنّ السيِّد وحيد كان أحسن لاعب بوكر وشطرنج أيضاً، وقد حاول أن يعلِّمني ذلك، عندما كنتُ معلِّماً معه في القرية النّائية؟ أمّا بالنسبة إلى لعبة الدومينو بالذات، فقد بدأ يتقنها بعد أن خسر مرّة أمام أحد القرويّين.. آنذاك، لم يترك قرويّاً ولا موظّفاً إلاّ ولعب معه، وكان يربح كثيراً، ويخسر مرّات قليلة. واستمرّت تلك الهواية، أو قلْ الاحتراف، حتّى بعد أن صدر الأمر بنقلنا إلى بغداد، حيث رمانا الضّجر والشّعور بالوحدة والهروب من البيت إلى هذا المقهى، حيث مانزال نجلس إلى ما شاء الله».

واستمرَّ عبد الجواد يروي لنا الحكاية، فقال:

ويبدو أنّ سمعة السيِّد وحيد قد وصلت إلى المقاهي المجاورة؛ فهذه المنطقة كانت مليئة بالمقاهي والدكاكين، ولم تكن العمارات قد أطبقت عليها من كلّ جانب. وذات يوم دخل المقهى شابّ وسيم، أنيق، تقدَّم نحونا ضاحكاً وقال: «أقدِّم لكم نفسي، أنا نائل، وأريد أن ألعب «الدومينو»

مع السيِّد وحيد!».

قلتُ لنفسي: حسناً، هذا شخص آخر يسقط في اللّعبة!

ابتسمتُ له وقلتُ وأنا أدعوه للجلوس: أنت تتحدّاه إذن!

قال: ولِمَ لا؟

التفت السيِّد وحيد إليه ساخراً، وقال: يحسن أن تذهب وتتعلّم قبل أن تغامر معي، فالمقهى يعجّ باللاعبين!

أجاب السيِّد نائل: لقد اخترتك، فأنت لاعب جيِّد، إنّني أتحدّاك وعلى رؤوس الأشهاد!

قال وحيد، وهو ينظر إليه بودٍّ واضح: وأنا قبلتُ التّحدِّي!

أمّا السيِّد نائل، فقد ظهر عليه الارتياح، وكاد يعانقه، كأنّما تحقّقت لديه أمنية من أمنيات العمر. ولكنّه ما لبث أن قال: أرغب أن تتمّ اللّعبة في آخر الليل، عندما يفرغ المقهى من الزبائن، لكي تكون الجلسة أكثر هدوءاً وراحة.

وافق السيِّد وحيد على ذلك، بينما أعرب صديقنا أحمد رحمه الله عن اعتذاره عن الحضور لأنّه لا يستطيع السّهر طويلاً.

وهكذا حين أطبق اللّيل وفرغ المقهى من الزبائن، انتقلنا نحن الثلاثة إلى مائدة بمحاذاة السّياج الذي يفصل المقهى عن النّهر. جلس هو ووحيد متقابلين إلى مائدة اللّعب. وأمّا أنا فجلستُ على بُعدِ خطوتين أُدخِّنُ آخرَ ما تبقّى لي من السّجائر.

أخرج السيِّد نائل علبة دومينو جديدة تناولها وحيد متفحِّصاً إيّاها قطعةً قطعة، وفجأة قال السيِّد نائل: «لقد نسينا الرّهان». ثمّ التفت إلى النّهر وقال: «هل ترى النّهر يا سيِّد وحيد؟! إنّه في ذروة الفيضان ولا يخلو من خطورة. ولكن ما العمل؟ إنّني أحبُّ المغامرة!» ضحك ثمّ قال: «أنت حرٌّ تماماً يا سيِّد وحيد ويمكنك أن تنسحب من اللّعبة؛ ذلك أنّ شرطي الوحيد خَطِرٌ، ولكنّه في منتهى الرّوعة.. إنَّ مَن يخسر اللّعبة عليه أن يرمي نفسه في النّهر بكامل ملابسه، وسيكون المنظر رائعاً حقّاً».

«يا له من مزاح ثقيل!»، قلتُ لنفسي. أمّا السيِّد وحيد فقد وافق ضاحكاً. قال: «لا أفكّر في الخسارة، وإذا خسرت فإنّ ملابسي ليست أنيقة على أيّة حال»!

وهكذا بدأت اللّعبة..

ولا أكتمكم أنّني راقبت بدايتها، ولكنّي لم ألبث أن أزحتُ الكرسيَّ الذي أجلس عليه، وانصرفتُ إلى منظر النّهر الذي تكشفه أضواءُ المقهى الشّاحبة. كان يدوّم ويسرع تحت أقدامنا، وكان صوت الماء يرتفع إلى رأسي، فيما كانت أمواج المياه تدور وتلتفّ، وتكاد تصل إلى الموائد. وأمّا قطع «الدومينو» فقد كانت تتساقط مع أصوات المياه. شعرت بدوار في رأسي يجتاحني، فأمسكتُ رأسي بيدي، ناظراً بعينين نصف مغمضتين إلى النّهر وامتداداته التي تغيب في الظلام الثّقيل. وبعد فترة ليست بطويلة طرق سمعي سقوطُ شيءٍ ثقيل في النّهر، مثل حجرٍ كبير. التفتُّ إلى مصدر الصّوت، فرأيتُ السيِّد نائل يحدِّق إلى أسفل السّياج. كانت مصابيح المقهىٰ الخافتة تلقي على الماء ضوءها الشّاحب ليظهر لنا رأس السيِّد وحيد في الماء الغريني الثّقيل، يظهر ثمّ يختفي، ويبتعد، ثمّ تدفعه المياه إلى نهايات لا تُرى..

عقدتِ الدّهشةُ لساني، وتشبّثتُ بالسّياج الحديديّ كي لا أسقط. ثمّ التفتُّ إلى السيِّد نائل أسأله عمّا حدث.

أخذ السيِّد نائل بيدي وأجلسني ثمَّ قدّم لي سيجارة. وبهدوء غريب قال وهو ينظر إلى تيّارات المياه المتدافعة: «لقد خسر السيِّد وحيد اللعبة. وقبل أن يقفز إلى النّهر سألني عمّا إذا كنت أستطيع أن أمنحه فرصة ليلعب معي اليوم أو غداً لعبة أخرى أكثر ذكاءً كالبوكر أو الشطرنج، فرفضتُ ذلك وقلت له: على المرء أن يتقن لعبة واحدة، حتّى لو كانت سخيفة»

وفجأة قال لي الأستاذ نائل: «لماذا تنظر إليَّ أنتَ بحقد.. ألم يكن هذا هو الرّهان.. ألم يوافق عليه؟ ألم تكن حاضراً وشاهداً حين بدأت اللعبة وانتهت؟»

ثلاث قصائد

موسى كريدي

١ ـ الحزن في بغداد

مرَّ ببابِ السُّور
مرَّ ببابِ القصرِ والمدينه
معمَّداً بشوقِ بغدادَ إلى عشّاقِها
الغافين تحت القمرِ المصدور
نهرٌ من الرَّصاص
نهرٌ من الرّخام
نهرٌ من الأغاني

* * *

خيَّمَ في يديه
عصرٌ من الجُذام
فخبّأ التّابوت في شرشفِه
وقامْ.
شدَّ الهوىٰ ضفيرةً سوداء
وشقَّ كلُّ واحدٍ قميصه
من شجرِ الظّلام

* * *

يُضيءُ هذا النّهر كالصَّفيح
في الخرائطِ الحزينه
يدورُ دورةَ الصّداعِ في السّكون
إذْ يبدأُ الرّحيل
من سبلِ الحيرةِ نحو اللّيلِ والجنون

* * *

يحملُ في عروقِه النّدىٰ
ويحملُ الحريق